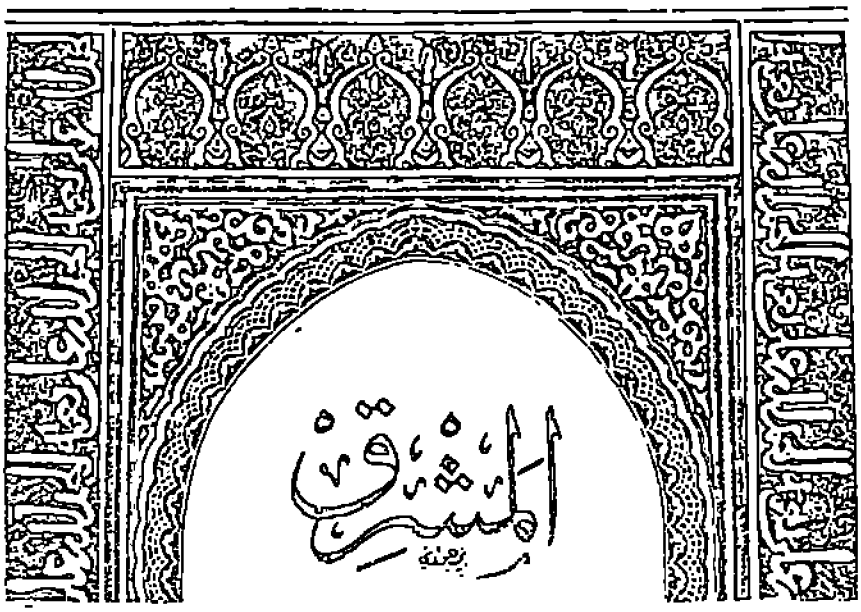

السنة الثانية والثلاثون — كانون الثاني – آذار ١٩٣٤

حالة الاسلام

في القرن الرابع للهجرة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

انه من يُلقي نظرة دقيقة على حالة الاسلام السياسية في اوائل القرن الرابع للهجرة يتحقق ان تلك الحالة ليست على شيء من الازدهار. فان الخلافة، اذ ذاك، اصبحت عرضةً للفوضى والانقسام فالتجزؤ. حتى ان تلك الامبراطورية الفسيحة التي اورثها الامويون العالمَ الاسلامي غدت مجموعة دويلات تتناظر وتتنافس ان لم تتقاتل وتتطاحن. فاستقلّ ببلاد فارس بنو بويه؛ وبالعراق والجزيرة بنو حمدان؛ وبسط الاخشيديون سلطتهم على مصر وسورية؛ والفاطميون على افريقية؛ وظلّ الامويون سائدين في اسبانية؛ وبنو سامان في خراسان وما وراء النهر؛ وكانت بلاد العرب الجنوبية ومنطقة البحرين تخضع للقرامطة؛ وجرجان وطبرستان في حكم الديلم؛ والبصرة وواسط في حكم البريدي. اما الخليفة فلم يبقَ له الا مدينة بغداد

وقسم من السواد . هذه ، بالاختصار ، حالة البلاد الاسلامية في اواخر القرن الثالث للهجرة .

على ان ملوك هذه الدويلات الاسلامية وامراءها كانوا يحتفظون للخليفة ببعض الميزات الشرفية . فكانوا يقرّون بسلطته العالية بان يجعلوا اسمه في المكان الاول من خطبة الجمعة ، ويطلبوا منه تثبيت القابهم ، ويرسلوا اليه الهدايا والتقادم . وان هذه الاشارات التكريمية هي التي دفعت بعض المؤلفين الى المقابلة بين الخلافة والبابوية . كما ان هذه الميزات الشرفية وحدها تبرّر ما كتبه المسعودي في نحو السنة ٣٣٢ هـ (٩٤٤) من ان « عَدَل امير المؤمنين من فرغانة واقصى خراسان الى طنجه بالمغرب ثلثة آلاف وسبع مائة فرسخ . »[1] وهي مساحة عظيمة . الا ان الخليفة لم يكن له فيها سوى شبح من السلطة ضئيل .

ولم يقف الانحطاط عند هذا الحد . فان كرامة الخلافة اصبحت العوبة الثورات المتنابعة في البلاط ، يلعب بها الوزراء وقوّاد الجيش من الترك او الديلم كيف شاؤوا ومتى شاؤوا . فتراهم يخلعون من الخلفاء ، ويقتلون ، ويولّون ، دون سبب سوى مشيئتهم الغلّابة . وقد يولّون الخلافة ولدًا ابن ثلاث عشرة سنة ليستبدّوا بالحكم استبدادًا تامًا ، فيشركون بالسلطة امّ الخليفة ، واكثر ما تكون من الجواري المولدات ، مثقفين وخصيان البلاط . وقد كثر عدد هؤلاء في العصر الذي يهمّنا فاحتلّوا المراكز المختلفة وبلغ بعضهم اعلى الدرجات حتى في مراتب الجيش . وقد يكتفي هذا الجمهور المستبدّ بخلع الخليفة وسمل عينيه فقط كي لا يقوى على استعادة السلطان[2] . وفي اثناء هذه العملية العظيمة كان الترك يأمرون بضرب الطبول كي يغطّوا صراخ الخليفة المسكين وعويل نسائه فلا يُسمع شيء من الخارج . ثم يتركون هؤلاء المخلوعين ، فيتلاشون شيئاً فشيئاً في الفقر والمسكنة ، حتى لقد كان منهم من يقضي العمر لابساً الصوف ومحتذياً

---

١) المسعودي : مروج الذهب ٤ : ٢٧-٢٨

٢) المسعودي : التنبيه ، ص ٣٨٨

قبقاب الخشب[1].

وفي هذا العصر كان الخلفاء ، وقد هبطوا الى درجة لا يؤبه لها ، يمدّدون الالقاب الشرفية كالسلطان ، والملك ، والامير ، وامير الامراء ، وما شاكل ، ويمنحونها جُزافاً مخترعين نوعاً جديداً منها ينتهي « بالملّة » او « الدولة » او « الامة » كبهاء الدولة ، وتاج الملة ، وما الى ذلك . وليس لهم من غاية الا تذكير الناس بوجودهم ، واخفاء ضعفهم الحقيقي ، والسعي في سبيل الربح المادي . فان هذه الالقاب والميزات الشرفية كانت تدرّ عليهم كميات من المال لا يُستهان بها . وكان اول من لقّب بلقب « السلطان » محمود الغزنوي ، انعم عليه بذلك القادر (٣٨٢–٤٢٢ ﻫ)[2] فعرفها له .

ومما يجب ان نشير اليه ان سوقة بغداد تعوّدوا في هذا العصر ، اذا ما بلغهم موت خليفة ، ان يهجموا على قصره وينهبوا كل ما تصل اليه ايديهم . حتى لقد بلغ منهم ان خلعوا الابواب والنوافذ احياناً . وكان يجاريهم في ذلك خدم القصر ، وقد يستقلون دونهم بهذه الاعمال .

***

كان خلفاء الامويين ، واول خلفاء بني العباس ، يهتمون بالقاء الخطبة بانفسهم في صلاة الجمعة . وقد اشار التاريخ الى بلاغة معاوية وخلفائه الاولين في هذه الخطب ، والى رغبتهم في ان ينعتهم الشعراء « بفرسان المنابر . »[3] ويقول الخليفة عبد الملك ان همّ القاء الخطبة شيّبه قبل الاوان . على ان العباسيين تخلصوا شيئاً فشيئاً من هذه العادة . فكان الرشيد اول خليفة القى خطبةً الّفها غيره وحفظها هو عن ظهر قلبه . ولم يدخل القرن الثالث الهجري حتى اخذ الخلفاء يستنيبون من يلقي عنهم خطبة الجمعة من عن منبر الجامع . وقد اشتهر من هؤلاء الخطباء ابن نباتة († ٣٧٤ ﻫ) خطيب سيف الدولة امير حلب . فترك مجموعة خطب يمكن ان نعتبرها مثالاً للبلاغة الدينية في هذا العصر .

---

١) ابن الاثير : الكامل ٨ : ٣٢٣

٢) ابن الاثير : الكتاب المذكور ٩ : ٩٣

٣) اطلب في ذلك كتابنا *Mo'âwia Ier*, p. 62-64

وهي تخالف كل المخالفة ما نعرف من امثلة الخطابة الدينية في القرنين السابقين. فبينا نرى خطب زياد ابن ابيه والحجاج بن يوسف وغيرهما طافحة بالحماسة القوية والعاطفة المخلصة اذا بآثار ابن نباتة لا تعدو الافكار العامة معبرًا عنها باسلوب مسجع ابعد من ان يعزز نزوات البلاغة الخطابية. وقد نشأت عادة الاسجاع هذه في منتصف القرن الثالث، ولم تلبث ان تجاوزت الفن الخطابي الى انواع الادب عامة فسارت مسيطرةً على الادباء سيطرتها على الخطباء فاضرتهم جميعاً. وكان خطيب الجمعة في البلاد المقرّة بالخلافة العباسية يلبس، على المنبر، الجبة السوداء. اما في بلاد الفاطميين فكان يرتدي جبةً بيضاء. وفي بعض الجوامع كانوا يرفعون، فوق الصحن، ستاراً واسعاً يظلل المستمعين اثناء الخطبة[1].

* * *

لا يأتي القرن الرابع الهجري كثيراً على ذكر الخوارج الذين كانوا قد خضبوا البلاد الاسلامية بالدم مرات عديدة مدة القرنين السابقين. على ان هناك حركات اخرى تستحق الذكر، هي حركة الشيعة المتحفزة للاقاع بعد ان استكنت طويلاً، وحركات البدع والفئات المتولدة عنها كالاسماعيلية، والنصيرية، والقرامطة، والفاطميين... وقد كانت بلاد الشام حتى هذا العهد سنية بجملها بفضل ما ترك فيها الامويون من الاثر الحسن. يدلنا على ذلك ان الامام الشهير النسائي، مؤلف «جامع السنن»، احد «الكتب الستة» الشرعية، لاقى الامرّين في جامع دمشق، في اوائل القرن الرابع، لانه رفض التبسط في ذكر مناقب معاوية واراد وضع عليّ فوقه.

ولكن لم يستتبّ الامر للدويلات الشيعية الاصل كبني حمدان في حلب، وبني عمّار في طرابلس، حتى اخذ امراؤها بتعزيز مذهبهم في جميع مناطق حكوماتهم. فانشأ بنو عمّار مكتبةً دعوها «دار العلم» في سبيل نشر الآراء الشيعية، وقد نجحوا في ذلك، على قول ناصري خسرو. وازدهرت البدع الشيعية في الجبال خاصة كبعض انحاء لبنان، وجبل عامل، وبلاد العلويين.

---

١) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٢٠٥ و ٤٢٠.

في زمننا الحاضر نرى الشيعة دين الاكثرية الساحقة في بلاد فارس، بل دين الدولة الرسمي ، فنتصوّر ان الفرس كانوا شيعيين منذ العصور الاولى للاسلام . والحقيقة ان هذه السيادة الشيعية بدأت باستتباب الامر للدولة الصفوية في القرن السادس عشر للمسيح . اما في القرن الرابع للهجرة فقد كانت بلاد فارس سنية في اكثرها ، ما عدا بعض الولايات كقُمّ والمشهد وفيه قبور افراد من « اهل البيت » . ثم استفاد الشيعيون على عهد الدولة الصفوية الشيعية ، فسيّروا الدعاة من جبل عامل يبشّرون الفرس فنجحوا نجاحاً باهراً ، وحوّلوا الى الشيعة تلك الاكثرية التي كانت لا تزال سنية ، حتى ان الجغرافي المقدسي[1] يذكر ان في زمانه كان اهل اصفهان من الغلاة في التشيّع لمعاوية[2] . وكذلك في القرن الرابع الهجري ، لا قبله ، اخذت المعابد الشيعية الكبرى في النجف وكربلاء تنال شيئاً من شهرتها التي ما برحت تزيد عصراً فعصراً . يدلّ على ذلك ان المسعودي يؤكد في السنة ٣٣٢ هـ ان قبر عليّ لا يعرف مركزه الحقيقي ، فيقول : « وقد تنوزع في موضع قبره . فمنهم من قال انه دُفن في مسجد الكوفة . ومنهم من قال انه حُمل الى المدينة فدفن عند قبر فاطمة . ومنهم من قال انه حُمل في تابوت على جمل ، وان الجمل تاه ووقع في بلاد طي . »[3] ولكن الشيعيين اخذوا بعد هذا العهد يبنون في النجف اثراً فخماً في محل زعموه موضعاً لهذا القبر . ولم تلبث ان جرت عادة بينهم تدفعهم الى اختيار مدافنهم في جوار ذاك الاثر . وقد اعادوا كذلك في كربلاء قبر الحسين ابن علي الذي كان الخليفة المتوكل قد هدمه ، وحرث مكانه بالسكة ، فحوّله الى حقل يُزرع . وكذلك اعتاد الشيعيون ان يختاروا مدافنهم في كربلاء . ولا يزالون على هذه العادة الى يومنا هذا . ولا يندر ان نسمع بمن يوصي ان تُحمل

١) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ٣٦٩

٢) ليُراجَع في هذا الباب المقال النفيس الذي نشره في المشرق (٣٦[١٩٢٨] ٤١١...) زميلنا الفاضل حبيب زيات بعنوان « التشيّع لمعاوية في عهد العباسيين » ، وفيه الادلة الوافرة على الهوس في تكريم مؤسّس الخلافة الاموية .

٣) المسعودي : مروج الذهب ٤: ٢٨٨–٢٨٩ ؛ ٥: ٦٨

جثته على مسافة ايام لتُدفن في تلك الارض المقدسة في النجف او كربلاء . كما حدث لكافور الشهير ، الوزير المصري ، اذ اشترى بيتاً في المدينة ، الى جنب قبر النبي ، واقام فيه قبراً واوصى بان يُنقل اليه فيدفن فيه[1] .

***

وهناك القرامطة الذين حلوا محلّ الخوارج في اعمال الهمجية والتفظيع . فاخذوا ، منذ منتصف القرن الثالث ، يقطعون الطرق وينكّلون . وقد دخلوا البصرة والكوفة ونهبوهما ، وكادت بغداد نفسها تقع في ايديهم . وفي السنة ٣١٧هـ هجموا على مكة فدخلوها واعملوا السيف في الحجّاج ، ونهبوا الكعبة ، وقد عاونهم سكان مكة انفسهم في هذا النهب . ثم رجعوا حاملين الحجر الاسود . ولم يردّوه الا في السنة ٣٣٩ لقاء فدية اقام العالم الاسلامي ٢٢ سنة حتى جمعها . ممّا يدفعنا الى السؤال : لِمَ تأخر المسلمون طول هذه المدة في افتداء حجرهم ؟ أرَ يكون في ذلك شيء من عدم الاهتمام او الاهمال ؟ . على ان الحجر المذكور أصيب بعدة نوائب منها ما كان اشدّ مما انزل به القرامطة . من ذلك ان احد المصريين في السنة ٤١٣ هـ على عهد الخليفة الفاطمي الحاكم ، هجم على الحجر الاسود وضربه بدبوس فكسر منه قطعاً . فأُخذ الجاني وقُتل في الحال وجُمعت القطع والصقت بعضها الى بعض . وهناك غيرها من الاعتداءات على الحجر يطول بنا سردها[2] .

وكان من نتيجة فظائع القرامطة هذه وجشع البدو الدائم ان اصبح من الصعب على المسلمين ان يؤدّوا فريضة الحجّ . اذ كانوا يتعرّضون للقتل المؤكد بعض الاحيان . وقد شاهدت السنة ٣٨٤ هـ . قافلة السلطان الرسمية ترتدّ عن طريق الحجّ ، لان البدو قطعوا عليها الطريق بحجة انها دفعت لهم دراهم زائفة[3] . وفوق المصيبة بالبدو ، كانت المصيبة بالعطش تزيد الصعوبات . وذلك

١) ياقوت : ارشاد الاريب ٢ : ٤٠٨

٢) ورد شيء من ذلك في مشرق السنة (٣٠ [١٩٣٢] ص ٦٩٦) عن جريدة « صوت الحجاز » المكية بمناسبة اعتداء احد الحجاج الافغان على الحجر المذكور سنة ١٩٣٢

٣) ابن الاثير : الكتاب المذكور ٩ : ٧٤

ان الآبار ومخازن الماء ، على طريق الحج ، كانت قد خربت او كادت بسبب الاهمال او التعديات الجمة . وقد بلغ ثمن قربة الماء سنة ٤٠٢ هـ مائة درهم . وفي السنة التالية افرغ البدو مخازن الماء ، فاتلفوا الوف الحجاج عطشاً ، ومن لم يمت اسروه حتى بلغت ضحاياهم خمسة عشر الفاً . وفي السنة ٤٠٥ بلغت ضحايا الحج ٢٠,٠٠٠ ماتوا جوعاً وعطشاً، و ٦,٠٠٠ دفعوا الى شرب بول الجمال كي لا يموتوا . فنشأ عن هذه الصعوبات عادة جديدة ، في القيام بفريضة الحجّ ، وهي ان يوكّل الانسان من يحجّ مكانه ، فيدفع له مبلغاً من المال ، فيستفيد الرجلان: الموكَّل الفائدة المادية ، والموكِّل الفائدة الروحية . على ان القائمين بهذا الحجّ المأجور لم يكونوا ليستفيدوا شيئاً لا في تحسين اخلاقهم ، ولا في زيادة مالهم ، على ما حكم به الجغرافي المقدسي اذ قال : « رأيت من حجَّ باجرة انتكس قلبه . فان عاد ازداد نكوساً وقلّ ورعه ، حتى ربما اخذ الحجتين والثلاث ، ولم أرَ لهم بركة ، ولا جمعوا منه مالًا قطّ . »[1] ولا شكّ في ان هذه العادة انتشرت بسرعة حتى تمكن ابو حيّان التوحيدي من ان يؤلف سنة ٣٨٠ هـ رسالة في « الحجّ العقلي »[2] . وكان ابو حيّان هذا صوفياً ، ولا يخفى ان الصوفيين لم يكونوا ليعزّزوا الحجّ .

واذا نظرنا الآن الى سياسة الاسلام الخارجية في القرن الرابع الهجري رأينا ان البيزنطيين ظهروا في مواضع عديدة على المسلمين ، وتوسّعوا في فتوحاتهم . وقد دفعت هذه المظاهر كلها بعض المسلمين المخلصين فكانوا يرفعون الى الله تشكياتهم من ضعف سلطة الخليفة ، ومن اهمال فريضة الحجّ ، ومن تقدم « الكفار » السريع . ورافق هذا التضعضع في السلطة الاسلامية العليا تتابع ثلاثة قوّاد عظام على عرش بيزنطية هم نيقفور ، وزيمشقس ، وباسيليوس . وكان هذا من اعظمهم وقد ملك اكثر من نصف قرن . ومما يُذكر من همة نيقفور انه مشى على البلاد الاسلامية فافتتح مدن كيليكية ، وترسيس ، فحلب ،

١) المقدسي : ك . م . ص ١٢٧

٢) ياقوت : الكتاب المذكور ٥ : ٣٨٢

فانطاكية ، فحماه ، فحمص ، فبعلبك ، فبيروت . وافتدت دمشق نفسها بان دفعت ٦٠,٠٠٠ دينار . فثار الشعب في بغداد على اهمال السلطة وضعفها وكسر المنابر في المساجد وهجم على قصر الخلافة.

وكانت هذه الحوادث الخارجية تزيد في الفوضى السائدة في بغداد نفسها ؛ بسبب المشاحنات القديمة بين السنة والشيعة التي كثيراً ما كانت تؤدّي الى التقاتل الفعلي . وكذلك كان شأن الحنابلة مع تبّاع سائر المذاهب السنية ، فانهم كانوا ينعون عليهم التهتك والخروج عن طرق الدين القويمة فيردّ عليهم هؤلاء وينشب العراك ، وتسفر النتيجة عن بعض الجرحى او القتلى وعن حرق الجوامع والمكاتب . واذا قُيّض الظفر للحنابلة ، فانهم كانوا يدخلون دور الاشراف وكبراء الدولة فيكسرون ادنان الخمر وآلات الموسيقى ، والحكومة عاجزة عن ان تردعهم . واذا فلا غرابة ان يقوم في السنة ٣٣١ هـ رئيس عصابة من قطاع الطرق يُدعى ابن حمدي فيطلق رجاله على بغداد ينهبون ويسلبون ، متفقين مع عدة من كبار رجال الدولة على ان يدفع لهم ابن حمدي راتباً شهرياً يبلغ ١٥,٠٠٠ دينار . ولا غرابة ان يميل سكان بغداد الى هجرها ، بعد ذلك ، حتى يخاف المقدسي ان تُصبح مقفرة كما اقفرت سامرّاء من قبل[1] . ومما زاد في هذه المصايب حريق هائل شبّ سنة ٣٦٢ هـ فاتلف ٣٣ جامعاً ، واهلك ١٧,٠٠٠ نفس . فاتهم الناس السلطة بانها دبّرت هذا الحريق عقاباً للسكان وتمهيداً لقمع الحركات الفوضوية.

ولم تكن حالة الاسلام في الغرب بافضل منها في الشرق . فان مسيحيي الاندلس كانوا ، كمسيحيي آسية الصغرى ، يتقدّمون تقدّماً متواصلاً على المسلمين.

الا ان هناك مكاناً كان يتقدّم فيه الاسلام تقدّماً جغرافياً . هو الحد الشرقي . فان السنة ٣١٣ هـ شاهدت فتح بلوخستان ، وكانت لا تزال على وثنيتها حتى ذاك الوقت . وفي السنة ٣٤٩ هـ اسلم نحو ٢٠,٠٠٠ مضرب من مضارب الترك الرحّل في آسية الوسطى . وقبل آخر القرن دخل الاسلام بلاد

---

١) المقدسي : ك . م . ص ١٢٠

قشغار وبلاد ختن ، بينما كان السلطان محمود الغزنوي يفتح افتتاحات جديدة في بلاد الهند .

***

كان القرن الاول للاسلام عصر اتساع وفتوح صرفت فيه قوى المسلمين الى العمل والجدّ الخارجيين، حتى لا يمكننا ان نتخيّل خالد بن الوليد او عمرو ابن العاص او زياد ابن ابيه او الحجّاج يهتمون بالمناظرات الكلامية او جمع الاحاديث .

ثم كان القرن الثاني فاتخذ الاسلام فيه وفي القسم الكبير من القرن الثالث ، يستجمع امره ، ويُتم نظامه الداخلي ، فيحدّد لاهوته وفلسفته وتقاليده الدينية وفقهه : فيعيّن طريقة تفسيره للقرآن ، ويعيد النظرة الاخيرة في تأليف سيرة الرسول . فتنشأ المذاهب الفقهية المهمة : مذهب مالك بن انس († ٧٩٥) ومذهب الشافعي († ٨١٩) ومذهب ابي حنيفة († ٧٦٧) ومذهب احمد بن حنبل († ٨٥٥) ولم يكن ابن حنبل في اول امره الا محدّثاً بسيطاً . ولكن مذهبه توصل الى ان يُعتبر مذهباً فقهياً من جملة المذاهب الشرعية مع الثلاثة الاولى . وقد حصل اختلاف شديد ونزاع قوي ، بل عراك ، بين هذه المذاهب ولكن المشاحنات هدأت كلها في القرن الرابع الا ما خصّ المذهب الحنبلي . على ان المذاهب الاربعة جميعها ، وان اختلفت في الفروع التطبيقية ، تظهر على وفاق تامّ في المسائل الجوهرية ، وكلها تعتبر شرعية سنيّة ، ينتمي اليها كل السنيين تقريباً في القرن الرابع . وهناك اقلية كانت تنتمي الى مذهب الاوزاعي الشامي († ٧٧٤) ومذهب داود بن علي († ٨٣٣) المعروف بالظاهري، ومذهب المؤرخ الطبري († ٩٢٣) التي كانت تفقد من تبّاعها يوماً فيوماً حتى تنتهي بالانحلال والتلاشي كما حصل لمذهب سفيان الثوري .

وقد عرف القرن الثالث حركة شديدة ورحلات متواصلة في طلب الحديث . فنشأ عن ذلك المجاميع المهمة المعروفة «بالكتب الستة» ، واصحابها البخاري († ٨٧٠) ومسلم († ٨٧٤) المدعوّان «بالشيخين» وهما اشهر المؤلفين في الحديث كما ان صحيحيهما اشهر المجاميع في هذا الفنّ ، يأتي بعد ذلك كتب ابي داود

(† ٨٨٨) والترمذي († ٨٩٢) والنسائي († ٩١٥) وابن ماجة († ٨٨٦) . وقد لاقى ادخال مجموع ابن ماجة بين « الكتب الستة » مقاومة شديدة اول الامر . ويُضاف الى هذه الكتب احياناً « سُنن » الدارمي († ٨٦٩) . ومن المجاميع المعتبرة « مُسنَد » ابن حنبل وهو في ستة اجزاء كبيرة تبلغ ٢٨٨٥ صفحة محتوية على نحو ٣٠,٠٠٠ حديث . ويكتفي المؤلفون عادةً ، منذ ظهور هذه المجاميع ، بشرحها ، وتلخيصها ؛ واذا زادوا شيئاً فانما يزيدون بعض الحواشي والاستدراكات . اما التفتيش الشخصي فقد انتهى زمنه .

والكتب الستة مدينة بشهرتها لكونها ظهرت في زمن سبق عن قرب « اقفال باب الاجتهاد » ، ثم لانها جمعت احاديث اتفق عليها اصحاب كل النزعات تقريباً ، فكان موقفها متوسّطاً بين ارباب النقد الشديد وتبّاع التصديق الاعمى مع ميل قليل الى هؤلاء ، واخيراً لانها اعرضت كل الاعراض عن الاحاديث الشيعية المحضة . ولهذا لا يرى الشيعيون بعين الرضى البخاري ومسلماً ، ولا يستندون في الغالب الى صحيحيهما .

ومما يجدر بالذكر في ما خصّ الحركة العقلية ان نظريات المعتزلة كانت قد وضعت شيئاً من الاضطراب في عقائد القرن الثالث . وذلك بما جاهرت به من خلق القرآن ، وارادة الانسان الحرّة ، وضرورة عدم التمييز في الله بين الجوهر والصفات والا فان المؤمن يُفسد عقيدة التوحيد ويقع في التجسيم . فكان ان الاشعري († ٩٦٥) انفصل عن المعتزلة وعمل على ايجاد مذهب متوسط يرتكز على تعابير مرنة رآها جديرة بالتوفيق بين العقل والوحي وبارضاء ارباب المنطق وسذّج المؤمنين جميعاً . وقد تبعت السنة مذهب الاشعري حتى يومنا هذا .

وفي ذاك الوقت انتهى التفسير القرآني الى حدّه المعروف . واعظم ممثليه المؤرخ الطبري الشهير ، وقد ترك تفسيراً ضخماً في ٣٠ مجلداً جمع فيها كل ما تركه سابقوه من المعلومات التفسيرية فذكر نصوصها وقابل بينها ، مائلاً دائماً الى جهة المحافظين التقليديين .

***

عند ذاك ، بعد عمل دام نحو مائتي سنة ، وقد أُلفت المذاهب ، ووُضعت

« الكتب » ، وانتصرت نظريات الاشعري الكلامية وما اتت بـه من حلول متوسطة ، وأقرّ التفسير التقليدي للقرآن ، عند ذاك ، واعتباراً من القرن الرابع ، اتفق المسلمون على « اقفال باب الاجتهاد » . ومنـذئذٍ اضحى العلماء والمؤمنون البسطاء لا يمكنهم ان يتجاوزوا في شيء تقليـد السلف الصـالح ، واحكام المذاهب الاربعة ، وهم يعتبرون ، في ذلك ، ان جميع المشاكل العويصة درسـها علماء السلف ومحّصوها واشاروا الى حلّها .

وهكذا بينما نرى الخلافة يضعف شأنها ، والفئات الشيعية المختلفـة ترفع رؤوسـها في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، اذا بنا نشهد الاسلام السنّي يستجمع امره ، ويسهر على عقائده ، فيضمّ في وحدة محدودة جميع الموادّ الضرورية لحياته الايمانية والفقهية . هذه هي الظاهرة التي اشار اليهـا المستشرق السويسري ميز (A. Mez) فسمّاها « احياء الاسلام »[1] كما لو كان تمركز العقيدة التقليدية ، واقرارها بواسطة « الاجماع » ، ميلاداً جديداً او حياةً جديدة للاسلام .

واذا اردنا ان نحدّد ميزةً دينية للاسلام في القرن الرابع الهجري فـاننا نشير الى اقرار عقائده ومؤسساته الدينية ، هذا الاقرار الـذي مكّن الاسلام ، بفضل منع المناظرة والاستقلال العقلي ، من الحياة حتى ايامنا هذه . ولكن بقي عليه ان يقاوم حملات الالحاد والبدع العصرية . . .

---

(١) A. Mez, *Die Renaissance des Islâm*, Heidelberg, 1922.